أبو العيناء: أديب بارع في المدح والهجاء[1]

Muhammed Faruk ÇAKIR[2]

APA: Çakır, M. F. (2023) أبو العيناء: أديب بارع في المدح والهجاء *RumeliDE Dil ve Edebiyat Araştırmaları Dergisi*, (33), 1034-1056. DOI: 10.29000/rumelide.1285362

الملخّص

أبو العيناء من أبرز الشخصيات في تاريخ الفكاهة العربية، فهو أديب ظريف ضرير تَتلمَذ على أعلام اللغة العربية في عصره مثل الأصمعي وأبي زيد الأنصاري. وذاع صيتُه في الأوساط الأدبية بعدما صار نديما للخليفة المتوكل على الله. إنّ الشخصية الأدبية لأبي العيناء ذات جوانب متعدّدة؛ فهو أديب وشاعر وراوِية أخبار، ولكن أهمّ ما يميّزه هو ظرفه ومزاحه بلا منازع. فله نوادر مضحكة وأجوبة مُسكتة حفلت بها كتب الأدب العربي، حيث خلّف وراءه مجموعة غنية من النوادر والنكت التي مازالت تُضحك قرّائها. ولم يقتصر أثر أبي العيناء على عصره، بل امتدَّ إلى ما تلاه من عصور. ثمة موضوعان رئيسان في نوادره وهما المدح والهجاء؛ فمن يقرأ نوادره يلاحظ أن معظمها تندرج تحت هذين الموضوعين؛ فلذا سيشكّل المدح والهجاء عند أبي العيناء محور بحثنا هذا. ولا شك أنه كان مدّاحًا بارعًا، وهجّاءً لاذعًا، يخاف من لسانه الصديق والعدوّ. وقد نال بفضل مدائحه مراتب عالية، كما حصل على جوائز ثمينة بينما أفحم خصومه بسهام الهجاء المفجعة. ومما يثير الباحث في مادة أبي العيناء المجموعة في مختلف المصادر براعته في اقتناص التعبير القرآني لتشكيل الجملة المزاحية. ولسوف تعرض هذه الصحائف صورة أبي العيناء الأدبية، لاسيما في سياق موضوعَي المدح والهجاء وستركّز على الدوافع الرئيسة التي جعلته مدّاحا وهجّاء. ومن خلال أمثلة غنية، ستتبدّى لنا سعة ثقافته اللغوية، وقوة حافظته، وسرعة بَديهته وانعكاسات كل تلك المزايا على براعته في المدح والهجاء.

الكلمات المفتاحية: أبو العيناء، الأدب العربي، المزاح، المدح، الهجاء

61. Bir medih ve hiciv ustası: Ebü'l-'Aynâ

Öz

Ebü'l-'Aynâ Arap mizah tarihinin en önde gelen simalarından biridir. Asmaî ve Ebu Zeyd el-Ensarî gibi Arap dili üstatlarından ders almış, âmâ bir edip ve nüktedandır. Halife Mütevekkil-alellah'ın nedimi olduktan sonra edebiyat mahfillerinde şöhrete kavuşan Ebü'l-'Aynâ 'nın edebi kişiliği geniş bir yelpazeye sahiptir. Bir edip, şair ve ahbâr râvisi olarak dikkat çekmekle birlikte onu öne çıkaran en temel özelliği mizahçılığı ve nüktedan kişiliğidir. Klasik Arap edebiyatı kaynaklarında okurları hâlâ güldüren çok sayıda anekdot malzemesi Ebü'l-'Aynâ imzası taşımaktadır. Kıvrak zekâsı ve dil ilimlerindeki maharetinin ürünü olan nükteleriyle hem yaşadığı çağa damga vurmuş hem de müteakip dönemlerin mizah kültürüne etki etmiştir. Ebü'l-'Aynâ anekdotlarının başlıca iki konusu makalemizin de eksenini oluşturan "medih" ve "hiciv" temalarıdır. Bu temalar ona ait anekdotlara göz atan herkesin rahatlıkla fark edeceği kadar belirgindir. O gerçekten de usta bir meddah ve dost düşman herkesin sivri diline düşmekten korktuğu amansız bir hiciv ustasıdır. Nitekim makam sahiplerine düzdüğü methiyeler sayesinde yüksek mertebelere erişip hatırı sayılır caizeler almış; diğer taraftan da can yakıcı hicivleriyle hasımlarının korkulu rüyası olmuştur. Onu ayrıcalıklı kılan en önemli özelliklerden biri de Kur'ân-ı Kerîm ayetlerinden iktibasla nükte üretme sanatındaki yetkinliğidir. Bu makale Ebü'l-'Aynâ 'nın edebi kişiliğini medih ve hicivleri bağlamında ele alacak, onu medih ve hiciv ustası kılan temel etkenlere odaklanacaktır. Sunacağımız zengin örnekler

[1] Bu makale yüksek lisans tezinden üretilmiştir. Abbâsî Sarayının Hazırcevap Nedîmi Ebü'l-'Aynâ (Hayatı-Mizahçılığı-Nükteleri) Uludağ Üniversitesi Sosyal Bilimler Enstitüsü, Temel İslam Bilimleri Bölümü, Arap Dili ve Belagati Bilim Dalı, Bursa, 2018

[2] Dr. Öğr. Gör., Bursa Uludağ Üniversitesi İlahiyat Fakültesi, Arap Dili ve Belagati ABD (Bursa, Türkiye) farukcakir@uludag.edu.tr, ORCID ID: 0000-0002-7831-5075 [Araştırma makalesi, Makale kayıt tarihi: 03.02.2023 kabul tarihi: 20.04.2023; DOI: 10.29000/rumelide.1285362]

sayesinde Ebü'l-'Aynâ 'nın dil ilimlerindeki enginliği, güçlü hafızası, hazırcevaplığı ve tüm bu meziyetlerinin medih ve hicivlerindeki yansımaları görülecektir.

Anahtar Kelimeler: Ebü'l-'Aynâ, Arap Edebiyatı, Mizah, Medih, Hiciv

A master of praise and satire: Abu'l-'Ayna

Abstract

Abu'l-'Ayna is one of the most prominent figures in the history of Arabic humor. He took lessons from masters of the Arabic language such as Asmaî and Abu Zeyd al-Ansari, and he is a blind man of letters and wit. Abu'l-'Ayna, who gained fame in literary gatherings after being the courtier of Caliph Mutevekkil-alellah, has a wide spectrum of literary personality. Although he draws attention as a literary, poet, and narrator, the most basic feature that makes him stand out is undoubtedly his humor and witty personality. Numerous anecdotal materials that still make readers laugh in the sources of classical Arabic literature bear the signature of Abu'l-'Ayna. With his wit and humor, which is the product of his skill in linguistics, he not only left his mark on the era he lived in but also influenced the humor culture of the following periods. The two main subjects of his anecdotes are "praise" and "satire" which form the axis of this article. These themes are so obvious that anyone who glances at his anecdotes will easily notice. He is indeed a master critic and a ruthless satirist whom everyone, friend or foe, is afraid of falling on his sharp tongue. As a matter of fact, thanks to the praises he gave to the dignitaries, he reached high ranks and received considerable merits; On the other hand, he became the nightmare of his opponents with his painful satires. One of the essential features that makes him privileged is his competence in the art of producing wit by quoting the verses of the Qur'an. This article will deal with the literary personality of Abu'l-'Ayna in the context of his praise and satire and will focus on the main factors that make him a master of praise and satire. Thanks to the rich examples we will present, Abu'l-'Ayna's vastness in linguistics, his strong memory, quick-wittedness, and the reflections of all these virtues in his praise and satire will be seen.

Keywords: Abu'l-'Ayna, Arabic Literature, Humor, Praise, Satire

التمهيد:

إن الفكاهة هي أحد الأنشطة الفكريّة التي تمكّنت من جمْع البشر على أرضية مشتركة على مر العصور، وهي ظاهرة تسلّي المجتمعات وتجعل وجودها الثقافي ذا مَغزًى. ويجب الاعتراف بأن هذه الظاهرة الثقافية الاجتماعية قد تجلّت في جانب أدبي ثريّ في الفترة المبكرة من النثر العربي الإسلامي؛ حيث بدأ تأليف كتب عن الفكاهة والمزاح منذ القرن الثالث الهجري. وكذلك تم تسجيل النوادر والروايات الفكاهيّة في كتب الأدب الموسوعية من قِبل العلماء والأدباء الذين نشأوا بالأقطار العربية الإسلامية في القرون الأولى للإسلام. ولا شك أن أبا العيناء من الأسماء البارزة في طيّات هذه الكتب؛ إذ ينتمي إليه عدد كثير من النوادر التي تلفِت الانتباه؛ ولذا أَعارَ العديد من المؤلفين الذين عاصروه أهميةً كبيرة لنوادره، وأخباره، وأبياته، وأقواله. فدوّن أحمد بن أبي طاهر (ت.٢٨٠هـ) مجموعتَين تحت اسمَي "أخبار أبي العيناء" و"كتاب شعر أبي العيناء". وكذلك نقَل عنه كثير من الكتاب والأدباء -مثل أبي بكر الصولي وغيره- مادة أدبية كبيرة. ويجب القول بأن نوادره كانت لها شعبية كبيرة؛ ولذلك شاعت بين الناس وتُنوقِلت جيلا بعد جيل. ومن الصعب جدا ألا يصادف اسمَه القارئُ الذي يتصفّح تلك الكتب.

صحيح أنه كُتبت عن أبي العيناء بحوث ومقالات علمية. أما ما يميّز هذا البحث عن غيره أنه يهدف إلى التركيز على موضوعين رئيسين في شخصيته الأدبية المزاحية: المدح والهجاء.

سنحاول من خلال هذه الصفحات الإجابة عن الأسئلة التالية وذلك من خلال اتباع المنهج الوصفي والمنهج التحليلي وسوف نفيد بلا شك من المنهج النفسي.

فهذه هي الأسئلة الأساسية للبحث:

1. من أبو العيناء؟ وما هي الخصائص التي اُشتهر بها في الأدب العربي؟
2. متى ولماذا فقَد بصره وما أثر ذلك في شخصيته وأدبه؟
3. هل دفعه عمَاه إلى التشاؤم المطلق مثل الأدباء والشعراء الأكفاء الآخرين كأبي العلاء المعري؟
4. ما تأثير الشخصيات البارزة -مثل الخلفاء والوزراء والقُضاة- في حياته إيجابا وسلبا؟
5. ما الجوانب الملفتة للنظر في شخصيته الأدبية؟
6. ما نظرته في المدح والهجاء وما مدى براعته فيهما؟
7. وما الدوافع الأساسية والموضوعات الرئيسة لمدحه وهجاءه؟

لا بد أن يُلمّ القارئ أولا بحياته وأهم نقاط التحوُّل فيها لفهم التقلبات التي مرت عليه وانعكاسات تلك الاضطرابات في مدحه وهجاءه؛ ولذلك يبدأ البحث بمعلومات وجيزة عن حياته ثم يتناول عَمَاه وأثره في شخصيته وأدبه وبالتالي سيتم التركيز على علاقاته مع كبار الشخصيات الذين قد غيروا مسار حياته إيجابا وسلبا، وبذلك سيتم تسليط الضوء على الجوانب المظلمة في حياته، ثم سنحاول معالَجة موضوعَي المدحِ والهجاء عند أبي العيناء بشكل مفصل قدر المستطاع.

معلومات موجزة عن حياته

ورد اسمه في كتب التراجم كما يلي: هو أبو عبد الله محمد بن القاسم بن خَلَّاد بن ياسر بن سليمان. (الحموي، ١٩٩٣، ٦\ ٢٦٠٢) أما "أبو العَيْنَاء" فهو لقبه الذي اُشتهر به في حياته كما ذُكر به في المصادر. ونرى سبب تسميته بهذا اللقب في الرواية الآتية:

> (...) فسأله رجل، فقال :يا أبا عبد الله كيف كُنيتَ أبا العَيْنَاء؟ قال: قلت لأبي زيد سعيد بن أوس الأنصاري: يا أبا زيد كيف تُصغّر عينًا؟ فقال: عُيَينًا يا أبا العَيْنَاءِ، فلحِقت بي منذ ذاك. (البغدادي، ٢٠٠٢، ٤\٢٨٤)

أصل أبي العيناء من يمامة وينحدر من بني حنيفة، وكان جده ياسر مولى بني هاشم. أما كنيته فهي "أبو عبد الله" نسبة إلى ابنه الأكبر. (الحموي، ١٩٩٣، ٦\٢٦٠٢) ولا تتوفّر عن أسرته معلومات كثيرة، ولكن ورد في *وفيات الأعيان* أن له ولدا آخر غير عبد الله يُدعى أبا جعفر والذي سجَّل تاريخ وفاة والده. (ابن خلقان، ١٩٩٤، ٤\٣٤٧) ونفهم كذلك من حوار بينه وبين سعيد بن مُخلَّد أن له بنتا. (الآبي، ٢٠٠٤، ٣\١٣٣) ولكن لم يُعثر على اسمها في المصادر.

وُلد أبو العيناء عام 191 هـ الموافق 807 م بمدينة الأهواز (الصفدي، ٢٠٠٠، ٤\٢٤٣) التي فُتحت في عهد عمر بن الخطاب والتي تَبعُد عن البصرة 170 كم وهاجر إلى البصرة في صِغره مع عائلته وأمضى هناك طفولته وشبابه وبها أكمل حِفْظ

القرآن ودرَس علوم اللغة، كما اكتسب فيها مهاراته اللغوية والأدبية (ابن خلقان، ١٩٩٤، ٣٤٣\٤) التي جعلته شاعرا وأديبا مميَّزا ونديما مرموقا في البلاط العباسي. ولذلك نرى بعض كتب التراجم تَنسُبه إلى البصرة. (الصفدي، ٢٠٠٠، ٢٤٣\٢)

انتقل أبو العيناء إلى بغداد عاصمة الخلافة العباسية في عهد المأمون، وأقام فيها علاقات مع أهم رجال الدولة بمن فيهم الكتاب والوزراء وقاضي القضاة وحتى الخليفة. (البغدادي، ٢٠٠٢، ٢٨٤\٤) والمحطة التالية في حياته هي مدينة سامرَّاء التي نال فيها ما حَلم به من شهرة واسعة وعيش رَغيد، وذلك بعدما أصبح نديما للخليفة المتوكل على الله. (الشابشتي، ١٩٨٦، ٩١)

صحيح أن كتب التراجم لا تزوِّدنا بمعلومات مشبعة عن طفولته وشبابه إلا أنه يمكن العثور على بعض التفاصيل عن حياته في كتب الأدب الزاخرة بنوادره؛ فالرواية الآتية على سبيل المثال تشير إلى مستواه العلمي والبيئة الثقافية التي تَرعرع فيها.

> قال أبو العيناء: أتيت عبد الله بن داود الخريبي؛ فقال: ما جاء بك؟ فقلت: طلب الحديث، قال: اذهب فتحفظ القرآن، قلت: قد حفِظت القرآن. قال: فاقرأ: {واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ} قال: فقرأت العشر، قال: فاذهب الآن وتعلّم الفَرائِض. قال: قلت: قد تعلّمت الجد والصلب والكبد، قال: فأيهما أقرب إليك: ابن أخيك أو ابن عمك؟ قال: قلت: ابن أخي، قال: ولم؟ قلت: لأن أخي من أبي، وعمّي من جدّي. قال: اذهب الآن وتعلَّم العربية. قلت: علمت ذاك قبل هذين. قال: فلم قال عمر بن الخطاب: يا لَه، يا لِلمسلمين؟ قال: قلت: فتح تلك للاستغاثة، وكسر هذه للاستنصار. قال: لو حدَّثتُ أحدا [في سنك] حدَّثتك. (الآبي، ٢٠٠٤، ١٥٥\٣)

وفي رواية أخرى نجد تفاصيل أخرى عن حياته وبيئته حيث قال له الخليفة المتوكل: بلغني أنك رافِضِيّ، فقال: يا أمير المؤمنين وكيف أكون رافضيا وبلدي البصرة، ومَنشَأي مسجد جامعها، وأستاذي الأصمعي، وجيراني باهِلّة. (الحموي، ١٩٩٣، ٦٤\١)

ويُذكر في بعض المصادر أنه تلقَّى أيضًا علم الحديث؛ (ابن خلقان، ١٩٩٤، ٣٤٣\٤) إلا أنّه لا يعتبر متمكنا فيه، حيث لم يروِ إلا عددا قليلا من الأحاديث كما عدَّه الحافظ المحدّث الدَّارقُطْني ضعيفا في الحديث. (البغدادي، ٢٠٠٢، ٢٨٤\٤)، إنما أهمّ ما يميّزه في العِلم هو كونه "راوِيةً للأخبار". ولا شكّ أن أبرز صفة له كأديب هي ظَرْفه وفكاهته.

على الرغم من أنه نجا من غرق سفينة كان يسافر على متنها مع ثمانين راكبا إلا أنه تُوفّي حينما نُقل إلى البصرة. (البغدادي، ٢٠٠٢، ٢٨٤\٤) وتم تسجيل تاريخ وفاته في معظم كتب التراجم بعام 282 للهجرة ومع ذلك ذُكر في بعض المصادر أنه تُوفي سنة 283. (ابن خلقان، ١٩٩٤، ٣٤٧\٤)

أساتذته

بعدما انتقل أبو العيناء من الأهواز إلى البصرة تتلمذَ على علماء وأدباء وشعراء يحتلون مكانة مرموقة في تاريخ اللغة العربية وآدابها. يأتي في مقدمتهم أبو عبيدة معمر بن المثنى وعبد الملك بن قريب الأصمعي وأبو زيد الانصاري. (الحموي، ١٩٩٣، ٢٦٠٢\٦) وإذا نظرنا إلى الصفات المشتركة بين أساتذته نرى أن كل واحد منهم عالم بارع في اللغة وراوية أخبارٍ لا غِنًى عنه

في نقل التراث العربي الغني إلى الأجيال القادمة. وأصبح أبو العيناء الذي روى ما أخذه من أساتذته حَلقة مهمة في هذه السلسلة.

عمَاه

يُذكر في المصادر أن أبا العيناء فقَدَ عينيه في الأربعينات من عمره. حيث يقول المبرد: إنما صار أبو العيناء أعمى بعد أن نيَّف على الأربعين، وخرج من البصرة واعتلّت عيناه. (الحموي، ١٩٩٣، ٦\٢٦٠٤) ويقول البغدادي أيضا: إن بصره كُفَّ وقد بلغ أربعين سنة، وانتقل من البصرة إلى بغداد، فسكنها وكتب عنه أهلها. (البغدادي، ٢٠٠٢، ٤\٢٨٤)

وتخبرنا رواية مشهورة وردت في عدة مصادر (الصفدي، ٢٠٠٠، ٤\٣٤٣)، (ابن خلقان/ ١٩٩٤، ٤\٣٤٧)، (الحموي، ١٩٩٣، ٦\٢٦٠٣) بأن هذا المرض الوراثيّ أصاب سلالته بعد دعاء علي بن أبي طالب (كرَّم الله وجهه) على جده خلَّاد ومَن جاء من ذريته لأنه أساء خطابه. بينما يشير أحد الباحثين المعاصرين إلى أن هذه الروايات قد تكون موضوعة من قِبل خصومه. (الصالح، ١٩٤٧، ٤١٧)

على عكس بعض العظماء الذين دفَعهم العمى إلى التشاؤم المطلق مثل أبي العلاء المعري وغيره استطاع أبو العيناء بفضل شخصيته المزاحية القوية أن يتجنّب الوقوع في حالتَي اليأس والتشاؤم، كما أنه ظل يتمتّع بشخصيته الفكاهية الملوَّنة حتى بعد ذهاب بصره. أما بعض حالاته المتشائمة التي غالبا ما نلاحظها في أبياته فيمكن القول بأنها ترتبط ارتباطا وثيقا بوضعه الماليّ؛ حيث كان يرسم صورة مُبهِجة ومتفائلة جدا عندما كانت تغمره عطايا الخلفاء والوزراء في حين يتحول إلى رجل متشائم عندما أُقْصي عن أبواب القصر وخصوصا بعد خلافة المأمون إلى عهد المتوكل على الله. ويجدر بنا الإشارة إلى أنه بعدما أصيب بالعمى لم يكن يَمتهِن بعمل يكسب منه لقمة عيشه الأمر الذي دفعه دائما إلى السعي وراء إقامة علاقات مع رجال الدولة ليحظى منهم بدعم ماليّ.

ويجب أن نضيف أن عَمَاه جعله رجلا عيّابا ومُستهزِئًا وحادّ اللسان وهجَّاءً للناس؛ ومما يؤكد ذلك ما قاله الخليفةُ المتوكل على الله لأبي العيناء. إذ قال له ذات مرة: لا تكثر الوَقيعَة في الناس. فقال: إن لي في بصري شغلا عن ذلك. فقال: ذاك أشدّ لحقدك على أهل العافية. (الآبي، ٢٠٠٤، ٣\١٣١)

يجب القول بأن هذا العيب الجسديّ لم يُفقده شيئا في كثير من الأحيان، بل استغلّه أبو العيناء ببراعة لصالحه. واعترف بذلك أصدقاءه. فمثلا حينما سمِع ابن مكرم رجلا يقول: من ذهب بصرُه قلّتْ حيلتُه، ردّ عليه قائلا: ما أغفلَك عن أبي العيناء! ذهب بصره فعَظُمت حِيلته. (ابن خلقان، ١٩٩٤، ٤\٣٤٥)

ولم يمنعه عماه عن التقرب إلى الخلفاء والوزراء ونَيْل صداقتهم، بل وصفَّق البعض لهذا النجاح بمن فيهم صديقه أبو علي البصير الذي يقول: (الحموي، ١٩٩٣، ٦\٢٦٠٤)

قد كنت خفت يد الزمان عليك إذ ذهب البصر

لـم أدر أنّـك بالـعـمـى تـغنَى ويفتـقر البـشر

وقبل كل شيء أبو العيناء رجل يَدري أنه يتمتّع بمزايا عديدة تعوِّض ما يسبّبه عماه من السلبيات ويمكن أن نرى ذلك في أبياته الآتية: (الحموي، ١٩٩٣، ٦\٢٦١٢)

إن يأخذ الله من عيني نورهما ففي لساني وسمعي منهما نور

قلب ذكي وعقل غير ذي خطل وفي فمي صارم كالسيف مأثور

ومن اللافت للنظر أنه بفضل ذكائه الشديد وأجوبته المسكِتة ولسانه الحادّ كان يردّ على من استهزأ به ردا قويا ويلقّنه درسا لا ينساه. وهذه الرواية من الأمثلة الجيدة على ذلك:

قَالَ أبو العيناء: عشِقتني امرأة بالبصرة مِن غير أَنْ تراني وإنما كانت تسمع كلامي وعذوبته فلمَّا رأتني استقبحتني وقالت: قبَّحه الله هذا هو؟ فكتبت إليها: (الإصفهاني، ١٩٩٩، ٢\٢٢٦)

ونُبّئتها لما رأتني تنكرت وقالت ذميم أحول ما له جسم

فإن تنكري مني احولالاً فإنّي أديب أريب لا عييّ وَلَا فدم

شخصيته الأدبية

يحسن بأن نستهلّ هذا القسم بعبارات وردت في كتب الأدب والتراجم وبالتالي سيتم التركيز على أهم وأقوى العناصر في شخصيته الأدبية وهي مزاحه، وأدبه، وشعره، وأخباره. فيما يلي بعض عبارات مختارة تعرفِّ أبا العيناء:

"الأَخبارِيّ الأديب الشاعر، من ظرفاء العالم، آية في الذكاء واللَّسِن وسرعة البديهة." (الحموي، ١٩٩٣، ٦\٢٦٠٢)

"من أفصح الناس وأحفظهم وأسرعهم جوابا والغالب على رواياته الأخبار والحكايات." (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٢\٣٥٣)

"وهو ممن اشتُهر بالمجون، له نوادر وحكايات مستظرفة ومراسلات عجيبة." (النويري، ٢٠٠٢، ٤\٦٨)

"وكان فصيحا بليغا، حاضر الجواب، سريع الإجابة، شاعرا." (ابن النديم، ١٩٩٧، ١٥٧)

"كان حَسن الكتابة وبليغ الخطابة، مليح الشعر، طلق اللسان بالذم والاستبطاء، سريع الجواب، حاضر النادرة." (الشابشتي، ١٩٨٦، ٩١)

إذا أردنا أن نتحدث عن الشخصية الأدبية لأبي العيناء فيجب أن نقول قبل كل شيء أنّ العَلَامة الفارقة لها هي مزاحه وفكاهته؛ فهو ظريف فكاهي لم يضع بصمته في عصره فحسب وإنما خلّد اسمه في تاريخ الأدب العربي تاركًا وراءه كميةً لا يستهان بها من النوادر المضحكة والحكايات المستطرفة التي وجدت لها مكانا خاصا في طيَّات كتب الأدب القديمة، وأصبح بذلك من أبرز الوجوه للثقافة العربية المزاحية. ومما يشير إلى شعبيته أنه تم تدوين نوادره وهو على قيد الحياة تحت اسم "أخبار أبي العيناء" من قِبل أحد معاصريه أحمد بن أبي طاهر. (ابن النديم، ١٩٩٧، ١٥٧)

لا شكّ أن السِّمة المميَّزة لأديبنا هي كونه حاضر الجواب، سريع البديهة فهذه الميزة واضحة جدا بحيث يمكن ملاحظتها في أغلب نوادره. ومن راجعَ كتبَ السِّير والتراجم فإنّه سيرى أنها تشير بالاتفاق إلى سرعة بديهته، بل وكان أبو العيناء يُضرَب به المثل في الأجوبة المسكتة. (القلقشندي، د.ت، ١\٥٢١) ونفهم من المادة الأدبية المنسوبة إليه أنه لم تقتصر سرعة بديهته على ذمه ومدحه أو انتقاداته وتقديراته، بل كانت ميزة أساسية نابعة عن شخصيه وتشمل جوانب حياته كلها. ومع ذلك غالبا ما كانت أجوبته المسكتة للذم والهجاء والاستهزاء. وفيما يلي بعض نوادره التي تُظهر ميزته هذه:

١- قُدّم إليه يومًا قِدْر فوجَدهَا كثيرةَ العِظام؛ فقال: هذه قِدر أم قَبْر؟ (الحموي، ١٩٩٣، ٦\٢٦٠٩)

٢- وقال رجل له: يا مُخنَّث! فقال: { وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ } (الآبي، ٢٠٠٤، ٣\١٥٣)

٣- وقدِّمَ إلى مائدةٍ فالوذج، فقال -الشاعر- أَبُو هفان: لَهذه أحرُّ من مكانك في جهنَّم. فقال أبو العيناء: إِنْ كانت هذه حارةً فبَرِّدْها بشِعْرك. (الآبي، ٢٠٠٤، ٣\١٣٣)

٤- وقال بعض العلويين لأبي العيناء: أتتنقّصني وقد أُمرتَ بالصلاة عليّ في كل صلاة لأنك تقول: اللهم صل على محمد وآله. فقال: إني أقول: الطيبين الطاهرين فتَخرج منهم. (ابن أبي عون، ١٩٩٢، ١٩١)

٥- وقالَ أبو العيناء: أُدخل على المتَوَكل رجل قد تنبَّأ؛ فَقَالَ لَهُ: مَا عَلامَة نبوتك؟ قال: أَن يدْفع إِلَيّ أحدكُم امْرأَته؛ فَإِنِّي أحبلها فِي الْحَال، فقال يا أبا العيناء: هَل لَك أَن تعطيه بعض الأَهْل؟ فَقلت: إنّما يُعطيهِ من كفَر به؛ فضحِك وخلّاه. (الآبي، ٢٠٠٤، ٣\١٣٩)

كان أبو العيناء من أبرز الأدباء الذين أبدعوا في فن الاقتباس من الآيات القرآنية لأغراض مزاحية وذلك بفضل حفظه القوي للقرآن الكريم وكونه أديبا بارعا في علوم اللغة العربية وفنونها. وإن ذاكرته القوية وذكائه الحاد وتمكُّنَه في علوم اللغة وثقافته الدينية قد جعلته أديبا مميزا. صحيح أنّه لم يخلِّف وراءه كُتبًا أو مؤلفات إلا أنه خلّد اسمه في تاريخ الأدب العربي بأخباره ونوادره. ونجد له رسائل وأبياتا ذات قيمة أدبية كبيرة في بطون كتب الأدب. وبما أننا سنقتصر في هذا البحث على موضوعَي المدح والهجاء فلن نطيل هنا الكلام عن رسائله وشعره. وإنما نكتفي بتعليقات عامة عليها بإيراد بعض الأمثلة التي تُظهر الخصائص الأدبية والفنية في شعره ورسائله وأقواله.

أشعار أبي العيناء قليلة جدا بالمقارنة مع نوادره وحسبما ورد في *الفهرست* فإن معاصره أحمد بن أبي طاهر جمع شعره تحت اسم "كتاب شعر أبي العيناء" نحو ثلاثين ورقة. (ابن النديم، ١٩٩٧، ١٥٧) ولسوء الحظ لم تصل هذه المجموعة إلى يومنا، كما ضاع "كتاب أخبار أبي العيناء" الذي ألّفه الكاتب نفسُه، ولكن الباحث أنور أبو سويلم جمع تسعا وعشرين قصيدة لأبي العيناء من طيات كتب الأدب (أبو سويلم، ١٩٩٠، ٦٠) بينما دوّن أنطوان القوال واحدة وثلاثين قصيدة له ونَشر باسم "ديوان أبي العيناء ونوادره". (القوال، ١٩٩٤) أما موضوعات شعره فصُنِّفت كالتالي: الإخوانيات والهجاء، والرثاء، والتعزية، والحكمة، والفخر، والغزل، والشكوى، والوصف. (أبو سويلم، ١٩٩٠، ٦٠)

إن أبا العيناء يرسم صورة متشائمة في شعره على عكس نوادره المبهجة. فيبدو أن شاعرنا الذي كُفّ بصره وعانى من الفقر في بعض مراحل حياته قد صاغ حزنه وألمه ويأسه في شعره. فهذه الأبيات تصف تلك التعاسة بصراحة: (الحموي، ١٩٩٣، ٦\٢٦١٣)

تولت بهجة الدنيا فكل جديدها خلق

فخان الناس كلهم فلا أدري بمن أثق

رأيت معالم الخيرات سُدّت دونها الطرق

فلا حسب ولا أدب ولا دين ولا خلق

وقال أيضا: (الحموي، ١٩٩٣، ٦\٢٦١٤)

يا ويح هذي الأرض ما تصنع أكل حي فوقها تصرع

تزرعهم حتى إذا ما أتوا أشدهم تحصد ما تزرع

وفي القصيدة التالية، التي كتبها في مراحل الشيخوخة من حياته، يعبر عن شوقه لأيام شبابه: (القالي، ١٩٢٦، ٢\٩٣)

ما في يديّ من الصّبا إلا الصّبابة والأسف

جاء الشباب فما أقام ولا ألـــمَّ ولا وقـــف

كان الشباب كزائر ملَّ الزيارة فانصرف

أما رسائله فتتميز بدقة الصياغة ووضوح المعنى، واستخدمَ فيها فنون البلاغة ببراعة. فهذا مثلا هجائه لعيسى بن فَرْخَانْشاه حينما عُزل عن الوزارة والذي كان يستخفّ بأبي العيناء:

> الحمد لله الذي أذلّ عزتك وأذهب سَطوتك وأزال مقدرتك وأعادك إلى استحقاقك ومنزلتك، فلَئِنْ أخطأتْ فيك النعمة لقد أصابتْ منك النقمة، ولئنْ أساءت الأيام بإقبالها عليك لقد أحسنت بإدبارها عنك. فلا أنفذَ الله لك أمرا ولا رفَع لك قَدرا ولا أعلى لك ذِكرًا! (التوحيدي، ١٩٩٢، ١\٤٦)

وتشكِّل قسما يسيرا من تراثِه الأدبي الحِكمُ والنصائح. منها ما يلي:

"ربّ وحشة أمتع من جليس، ووحدة أنفع من أنيس." (القيرواني، د.ت، ٣٢٥)

"إذا أراد الله أنْ يسلّط على عبده عدوًّا لا يرحمه سلَّط عليه حاسدا." (الإصفهاني، ١٩٩٩، ١\٣١٣)

"قيل له: ما أبلغ الكلام؟ فقال: ما أسكت المبطل، وحيّرَ المُحِقّ." (الصفدي، ٢٠٠٠، ٤\٢٤٤)

"إذا أردت أن تكون صَدْرا في المجالس فعليك بالفقه ومعاني القرآن، وإذا أردت أَن تكون منادما للخلفاء وذوي المروءة فعليك بنُتَف الأشعار ومُلَح الأخبار." (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١٢\٣٥٧)

علاقاته مع كبار الشخصيات في عصره

بعد مغادرته البصرة وُفّق أبو العيناء في إقامة علاقات مع كبار الشخصيات في العاصمة بغداد وعلى رأسهم الكُتّاب والحُجّاب والقضاة والوزراء وحتى الخلفاء ونال فيها صداقة البعض وعداوة الآخر مما أدّى ذلك إلى تقلبات في حياته، حيث حظي تارة بحماية من رجال الدولة فعاش في نعيم وتارة أخرى أُغلقت أبواب القصر في وجهه فذاقَ مرارة العيش. سنتناول هنا أهمّ الشخصيات التي غيّرتْ مسار حياته إيجابا أو سلبا:

المأمون

من المعلوم أنّ عهد الخليفة المأمون (ت. ٢١٨) كان عصرا ذهبيًّا للنشاطات العلمية والأدبية، وكان يتِمّ فيه دَعْم العلماء والمترجمين أكثرَ من أي وقت آخر، الأمر الذي جلَب العلماءَ والأدباء والشعراء بطبيعة الحال إلى بغداد العاصمة العباسية وكان من بينهم مَنْ جاء بدعوة من المأمون مثل الجاحظ وغيره. ومن هنا يمكن القول بأن أبا العيناء الذي عانى من مشاكل مادية في البصرة إنما انتقل في هذه الفترة إلى بغداد طلبًا للحصول على حظِّه من هذه الفرص والإمكانات الجذابة التي تقدّمها الدولة لأهل العلم والأدب؛ ومما يؤكد رأينا هذا أنه سعى لمقابلة رجال الدولة بعد انتقاله إلى بغداد كما يؤكده أيضا انتقاله إلى مدينة سامراء التي جعلها المعتصم عاصمة جديدة للدولة. (Çakır، ٢٠١٨، ٢٥)

قابل أبو العيناء أولا الوزيرَ حَسَن بن سَهْل (ت. ٢٣٦) ومدح جُوده وعرضَ عليه حاجته للمال فأمر له الوزير بخمسة آلاف درهما. (ابن المعتز، د.ت، ٤١٤) كما حظي أيضا بحمايته ما دام هذا الوزير السخي على قيد الحياة، وعندما مات حَسَن تأثر أبو العيناء بوفاته تأثرا كبيرا.

والتقى أبو العيناء بالخليفة المأمون ونال منه إكراما عظيما وإحسانا جليا فإليكم الرواية التي تسلّط الضوء على علاقته بالمأمون: (الإبشيهي، ١٩٩٨، ١٧٧)

> حُكي عن أبي العيناء أنه قال: حصلتْ لي ضِيقة شديدة فكتمتها عن أصدقائي فدخلت يوما على يحيى بن أكثم القاضي فقال: إن أمير المؤمنين المأمون جلس للمَظالِم وأخْذ القصص فهل لك في الحضور؟ قلت: نعم. فمضيت معه إلى دار أمير المؤمنين، فلمّا دخلنا عليه أَجلسَه وأجلسني ثم قال يا أبا العيناء بالألفة والمحبة ما الذي جاء بك في هذه الساعة فأنشدته:
>
> لقد رجوتك دُون الناس كلهم — وللرجاء حقوق كلها تجب
>
> إن لم يكن لي أسباب أعيش بها — ففي العلا لك أخلاق هي السبب
>
> فقال: يا سلامة، انظر أي شيء في بيت مالنا دون مال المسلمين. فقال: بقية من مال. قال: فادفع له مائة ألف درهم وابعث له بمثلها في كل شهر، فلما كان بعد أحد عشر شهرا مات المأمون، فبكى عليه أبو العيناء حتى تقرّحت أَجْفانه، فدخل عليه بعض أولاده فقال: يا أبَتَاه، بعد ذهاب العين ماذا ينفع البكاء؟ فأنشأ أبو العيناء يقول:

شيآن لو بكت الدماء عليهما عيناي حتى يؤذنا بذهاب

لم يبلغا المعشار من حقهما فقد الشباب وفرقة الأحباب

من الواضح أن أبا العيناء قد احتلّ مكانة مرموقة لدى المأمون ويرجع الفضل في ذلك إلى شخصيته الأدبية القوية ومدائحه للخليفة. وعلى الرغم من وفاة المأمون بعد علاقتهما التي لم تستغرق إلا أشهرا قليلة إلا أنه توجد أخبار عدة رواها أبو العيناء عن المأمون وذلك يعني أنه أفسح لأبي العيناء مجالا في مجالسه. ومما يشير إلى قيمة أبي العيناء لدى الخليفة أنه اصطحبه في رحلته من بغداد إلى دمشق. (ابن الجوزي، ١٩٩٢، ١١\٣٣٥)

ابن أبي دؤاد

إنه أبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد (ت.٢٤٠)، العالم المعتزلي وقاضي القضاة للمعتصم (ت. ٢٢٧) والواثق (ت. ٢٣٢) (البغدادي، ٢٠٠٢، ٥\٢٣٣) وهو -كما نفهم من الرويات التي سنورد بعضا منها- صديق حميم لأبي العيناء إذْ لم يقصّر في دعمه ولم يبخل في عطائه. ولا بد من ذكر ترجمة هذا القاضي حتى يتم تسليط الضوء على بعض مراحل حياة أبي العيناء.

كان ابن أبي دؤاد من الذين لا غِنًى عنهم في مجلس الخليفة المأمون حيث قال المأمون للقاضي يحيى بن أكثم يوما: "اختر لي من أصحابك جماعة يجالسونني ويكثرون الدخول إلي، فاختار منهم عشرين فيهم ابن أبي دؤاد، فكثروا على المأمون، فقال: اختر منهم، فاختار عشرة فيهم ابن أبي دؤاد، ثم قال: اختر منهم، فاختار خمسة فيهم ابن أبي دؤاد، واتصل أمره، وأسند المأمون وصيته عند الموت إلى أخيه المعتصم، وقال فيها: "وأبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد لا يفارقك الشركة في المَشورة في كل أمرك، فإنه مَوضُع ذلك، ولا تَتخِذنَّ بعدي وزيراً." ولما ولي المعتصم الخلافة جعل ابنَ أبي دؤاد قاضي القضاة، وعزل يحيى بن أكثم." (ابن خلقان، ١٩٩٤، ١\٨٤)

كان ابن أبي دؤاد أديبا وشاعرا فضلا عن كونه متكلما حاذقا وفقيها بارعا. قال عنه أبو العيناء: ما رأيت أفصح لسانا ولا أجمع رأيا ولا أحضر حجّة من ابن أبي دؤاد. (ابن حمدون، ١٩٩٦، ٩\٢٨٦) وكذلك قال عنه الفتح بن خاقان: ما رأيت أظرف من ابن أبي دؤاد. (الحصري، د.ت، ٤\٩٥٢) وأما جوده وسخاه فكان مضرب المثل. إذْ يقول عنه أبو العيناء: (...) تذاكروا السخاء فاتفقوا على آل المهلّب في الدولة المروانيّة، وعلى البرامكة في الدولة العبّاسيّة، ثم اتفقوا على أن أحمد بن أبي دؤاد أسخى منهم جميعا. (الزمخشري، ١٩٩١، ٤\٣٦١) وكذلك يَصِفه القلقشندي بأنه مضرب المثل في المروءة وحسن التقاضي. (القلقشندي، د.ت، ١\٥٢١)

كان هذا الرجل السخي يدعم أهل العلم والأدب ويكرمهم ويشجعهم وأخذ أبو العيناء نصيبه الجزيل من إكرامه وعطاياه ونال صداقته وحمايته وصار من أَحِبّائه. ولما انتقل أبو العيناء من البصرة إلى بغداد وبدأ يجالسه لأن ابن أبي دؤاد أيضا كان في بلاط الخليفة المأمون في الفترة نفسها، ويبدو من هنا أن علاقتهما قويت في مجالس المأمون. وهناك روايات عديدة -نقلنا بعضا منها- نرى فيها مدْح أبي العيناء له. وجَرتْ بينهما حوارات طريفة منها رواية تُبرِز ظَرْف ابن أبي دؤاد وبراعته في فن الاقتباس من القرآن الكريم. وإليكم الراوية:

> قال أبو العيناء: قلت لأحمد بن أبي داؤد: إن قوما تظافروا عليّ! قال: {يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ} قلت: إنهم عدد وأنا واحد! قال: {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً...} . قلت: إن للقوم مكرا! قال: {وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ}. (ابن عبد ربه، ١٩٨٣، ٢\٢١)

والعجيب أن ابن أبي دؤاد هو نفسه من تسبَّب في إغلاق أبواب القصر في وجه أبي العيناء وحرمانه من عطايا الخلفاء والوزراء وسائر رجال الدولة وذلك يعود إلى العلاقة بين ابن أبي دؤاد وابن الزيات الذي جعله المعتصم وزيرا له. حيث لم يكن بينهما تنافس كبير فحسب، بل عداوة شديدة أدت إلى إقصاء أقارب وأصدقاء ابن أبي دؤاد من إمكانات الدولة من قِبل الوزير القوي الذي كسر شوكة ابن أبي دؤاد.

ابن الزيات

بعد حياة رغيدة نالها أبو العيناء بفضل كلٍّ من الخليفة المأمون ووزيره حسن بن سهل وقاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد جاء شخص آخَر قلَّبَ هذه الحياة المرفَّهة رأسا على عقب ألا وهو محمدُ بن عبد الملك ابن الزيات (ت.٢٣٣). ولا يمكن أن نفهم التقلبات في حياة أبي العيناء إلا من خلال معرفة هذا الوزير وخاصةً العلاقة بينه وبين ابن أبي دؤاد.

عندما تولّى المعتصم الخلافة بعد المأمون جعل ابن الزيات وزيرًا له في السنة الثالثة من خلافته. وأبقاه الواثق بعد المعتصم في الوزارة وجهَّزه بصلاحيات واسعة وأمرَ كلَّ من يرى ابن الزيات أن يقوم احتراما له. (ابن خلقان، ١٩٩٤، ١\٨٥) وهناك أخبار كثيرة تدل على القدرة العظيمة والنفوذ الكبير لابن الزيات في الدولة العباسية وسنكتفي منها بما ذكره الطبري في تاريخه:

> عقَد محمد بن عبد الملك الزيات لإسحاق بن إبراهيم بن أبي خميصة مولى بني قشير من أهل أضاخ فيها على اليمامة والبحرين وطريق مكة، مما يلي البصرة في دار الخلافة، ولم يُذكر أن أحدا عقَدَ لأحدٍ في دار الخلافة إلا الخليفة غيرُ محمد بن عبد الملك الزيات. (الطبري، ١٩٦٧، ٩\١٤٠)

وإن الكتب التي تتحدث عن حياة ابن الزيات أو ابن أبي دؤاد تشير إلى العداوة الشديدة بينهما. فيقول الحصري مثلا: كانت العداوة بينه وبين ابن الزيّات بيّنة، والنفاسة في الرياسة بينهما متمكّنة. (الحصري، د.ت، ٢\٣٩٥) وبفضل الامتيازات العظيمة التي منحها له المعتصم والواثق تغلّب ابن الزيات بشكل عام في صراعه مع ابن أبي دؤاد. وهذا بطبيعة الحال كان نقطة انهيار في حياة أبي العيناء كما هو الحال لمن لهم صِلة بابن أبي دؤاد. ويمكن أن نقرأ ذلك الوضع في الرواية الآتية أيضا:

> كان بينه وبين الوزير ابن الزيات منافسات وشحناء، حتى إن شخصاً كان يصحب القاضي المذكور ويختص بقضاء حوائجه منعه الوزير المذكور من الترداد إليه، فبلغ ذلك القاضي، فجاء إلى الوزير وقال له: والله ما أجيئك متكثراً بك من قلة، ولا متعززاً بك من ذلة، ولكن أمير المؤمنين رتبك مرتبة أوجبت لقاءك، فإن لقيناك فله، وإن تأخرنا عنك فلك، ثم نهض من عنده. (ابن خلقان، ١٩٩٤، ١\٨٨)

الخلاصة أنه خلال وزارة ابن الزيات -وهي اثنتا عشرة سنة- أُغلقت أبواب القصر في وجه أبي العيناء وعاش حياة صعبة في تلك الفترة وأما عماه فزاد الطِينَ بِلّةً وأذاقَه مرارة العيش ضِعفين. رغم أنه سعَى لعرض حاجاته لابن الزيات من وقت لآخر،

إلا أن طلباته ظلت دائمًا دون إجابة. (الآبي، ٢٠٠٤، ٣\٣٤٣) ويمكن ملاحظة معاناته من الفقر بهذه الفترة في أبياته الآتية: (الحموي، ١٩٩٣، ٦\٢٦١٣)

الحمد لله ليس لي فرس ... ولا على باب منزلي حَرس

ولا غلام إذا هتفت به ... بادر نحوي كأنه قَبس

ابني غلامي وزوجتي أمتي ... ملّكنها الملاك والعرس

غنيت باليأس واعتصمت به ... عن كلّ فرد بوجهه عبس

فما يراني ببابه أبدا ... طَلْق المُحَيّا سمح ولا شرس

لقد رأى أبو العيناء نورا بعدما اعْتلَى المتوكل على الله عرش الخلافة. حيث كان من أوائل الأعمال التي قام بها المتوكل بعد توليه السلطة هو عزل ابن الزيات من منصبه ثم قتله. وهذا بطبيعة الحال من الأدلة الواضحة التي تدعم أن ابن زيات كان السبب الرئيس للحرمان الذي عاشه أبو العيناء في زمنه، وبعد انسحاب ذاك المانع، أُفسح المجال لأبي العيناء فنجح في التقرب إلى المتوكل وسطع بذلك نجمه من جديد.

سنحاول الآن تسليط الضوء على عهد المتوكل على الله وعلاقته به.

المتوكل على الله

كان المتوكل على الله (ت. ٢٤٧) يحب الحياة الفاخرة ويسعى لأجلها، وبعدما أصبح خليفةً أنشأ لنفسه في سامراء قصرا فخما باسم "بركة" ومن المعلوم أن كثيرا من الشعراء مدحوا هذا القصرَ، وكان المتوكل يُعير أهمية كبيرة للفن والأدب والموسيقى والمزاح ولذا كان يفتح أبواب القصر للشعراء والموسيقيين والندماء، بل ويتبرع لهم بمبالغ مُذهلة من العطايا الثمينة والجوائز النفيسة. ويبدو أنه بالغ في ذلك لأنه يُروى أن بيت المال قد تعرض في فترة مُعينة لأزمة كبيرة بسبب هذه التبرعات الفاحشة. (Kırkpınar ٣٢\٢١٢-٢١٤)

كنتيجة طبيعيّة لشخصية المتوكل تلك، كاد الشعراء والموسيقيون الذين تاقوا إلى التكريم من قِبله أن يهاجموا القصر العباسي، وكان يقدّم المتوكل للمتميزين منهم كل أنواع الدعم. فإن العلماء والكتاب والشعراء الذين أبدعوا في مجالات مختلفة مثل ابن قُتيبة والجاحظ والبحتري واسحاق الموصلي قد تلقَّوْا دعمَ ومساعدة القصر دائما وأصبح بعضهم ندماء الخليفة. (Kırkpınar ٣٢\٢١٢-٢١٤)

في هذه النقطة، ينبغي أن نلفِت الانتباه إلى شيء مهم وهو أنه في مثل هذه البيئة المليئة بهؤلاء الأعلام الذين وضعوا بصماتهم في تاريخ العلوم والأدب والموسيقى سطَع نجم أبي العيناء -رغم عماه- وأصبح واحدا من أبرز ندماء المتوكل. ولا شك أن هذا يعتبر نجاحا عظيما بالنسبة له. والآن سنركّز على علاقته بالمتوكل وبذلك سنكون قد عرفْنا شخصية أبي العيناء ومزاياه عن كثب. لنبدأ أولا بقصة تحكي تعارفهما:

> دخل أبو العيناء على المتوكل؛ فقال: أي شيء تحسن؟ قال: أَفهَم وأُفهِم، وآخذ من المجلس ما حَوى، مرة أَغلِب ومرة أُغلَب. قال: كيف شُربُك للنبيذ؟ قال: أعجَز عن قليله وأَفتضِح عند كثيره. قال: فما تقول في بلدك البصرة؟ قال: ماؤُها أُجاج، وحَرُّها عَذاب، وتَطيبُ في الوقت الذي تطيب فيه جهنّم. قال: ارفع حَوائِجك إلينا. قال: قد رفعتها إلى الله، فما أحبّ نجاحه فليس ينفعني شرحه. قال: نُحبّ أن تَلزَم مجلسنا. قال: يا أمير المؤمنين، إن أَجهلَ الناس مَن يجهل نفسه؛ أنا امرؤ محجوب والمحجوب تختلف إشارته، وقد يجوز قصده، فيُصغي إلى غير من يحدِّثه، ويقبل بحديثه على غير من يسمع منه، وجائز أن يتكلم بكلام غير راض، ومتى لم أُفرّق بين هذين هلَكتُ. وأخرى :كل من في مجلسك يخدمك، وأنا أحتاج أن أُخدَم، ولم أقل هذا جهلاً مني بما في هذا المجلس من الفائدة، ولكني اخترتُ العافية على التعرُّض للبلاء. قال الفتح بن خاقان: يا أمير المؤمنين، هذا رجل عاقل عارف بنفسه وبحقّ الملوك. قال: فيلزمُنا في كل الأوقات لُزومَ الفرض الواجب. (الأنصاري، ١٩٨٧، ٣٢٣)

كان أبو العيناء الذي يختلف إلى مجالس المتوكل ويستعرض ومهاراته منتظرا بفارغ الصبر أن يجعله المتوكل نديما له في بلاطه. وكان المتوكل يعرف أمله هذا فقال يوما: لولا ذهابُ بصر أبي العيناء لنادمته. فبَلَغه ذلك فقال: قولوا له إن أَعفَيتَني من قراءة نقوش الخواتيم ورؤية الأَهِلّة صلحتُ لغير ذلك. فبلغ المتوكلَ ذلك فضحك ونادَمه. (الصفدي، ٢٠٠٧، ٤٨)

وبذلك نال أبو العيناء المَرتبَة التي حلم بها كثيرا وأصبح من نُدَماء وجُلساء الخليفة المتوكل واستمرت صداقتهما مدة طويلة وبقيت منها حوارات لطيفة ونوادر مضحكة سُجّلت في الكتب وتناقلتها الأجيال على مرّ العصور. وخصّص بعض المؤلفين القدامى في كتبهم أبوابا مستقلة جمعوا فيها النوادر والحوارات بينهما، منهم الحصري الأنصاري في *جمع الجواهر* والشابشتي في *الديارات*.

يُحكى في *الديارات* أن المتوكل كان يُعجَب بكلامه وسرعة جوابه ونوادره. (الشابشتي، ١٩٨٦، ٩٢) وحسبما يُفهم من الروايات فإن المتوكل فعلا كان يحب قضاء وقت معه ويستمتع بصحبته المليحة المُزيّنَة بالنوادر وكان إذا غاب عنه أبو العيناء يشتاق إليه وقال له يوما: قد والله اشتقتك. وقال: إنما يشتاق العبد ربه؛ لأنه يعتذر عليه لقاء مولاه، وأما السيّد فمتى أراد عبده دعاه. (الأنصاري، ١٩٨٧، ٢٨٤)

وكان المتوكل -المعروف بولعه بالأدب والشعر- واثقًا جدًا من الذوق الأدبي الرفيع لأبي العيناء ولم يسعه إلا الرجوع إلى آرائه من أجل اختبار واختيار الأدباء والشعراء والجواري لقبولهم في القصر. فالرواية الآتية من الأمثلة الملفتة للنظر:

> عُرضت جارية على المتوكل فقال لأبي العيناء: هذه عُرضت على أنها شاعرة، فقلْ شيئاً لتُجيز، فقال أبو العيناء: -الرمل المجزوء- "أحمد الله كثيراً" فقالت: "حينَ أنشاك ضريرا" قال: يا أمير المؤمنين قد أحسنتْ في إساءتها. (التوحيدي، ١٩٨٨، ٥\٢١٣)

وكان المتوكل يحب أن يسأله عن الأشخاص ويطلب منه إبداء آراءه عنهم. فسأله مرة: من أسخى من رأيت؟ قال: ابن أبي دؤاد. وسأله أيضا: من أبخل من رأيت؟ قال: موسى بن عبد الملك بن صالح. قال: وما رأيت من بخله؟ قال: رأيته يَحرِم القريب كما يحرم البعيد، ويعتذر من الإحسان كما يعتذر من الإساءة. (الوطواط، ٢٠٠٨، ٣٦٦)

وباختصار، يمكن القول بأن أبا العيناء قد أدّى وظيفة المنادمة على أكمل وجه، لأنه رافق الخليفة وأفرحه بصحبته الطيبة وأطربه بنوادره المضحكة وأرشده في اختيار الشعراء والجواري للقصر وزوّده بمعلومات عن رجال الدولة بينما أكرمه المتوكل وأهداه جوائز ثمينة وتسلّى بصُحبَته.

المدح والهجاء عند أبي العيناء

يُعد المدح والهجاء من أكثر موضوعات الأدب العربي القديم لفتا للنظر؛ ولذا فإن المادة النثرية والشعرية في هذين الموضوعين تحتل مكانا عظيما في كتب التراث حيث نرى فيها مادة كبيرة من المديح والهجاء الموجهين للأشخاص أو الأماكن أو حتى الكائنات الحية. أمَّا المدائح التي وجّهها الشعراء والأدباء إلى الحكَّام -والتي نالوا مقابلها جوائز ثمينة - فهي من ألْمَع المدائح وأجملها. وأبو العيناء هو -بلا منازع- أحد أولئك الأدباء الذين برزوا في الأدب العربي القديم بمدائحهم المبهجة وأهجيتهم المفجعة.

إن المدح والهجاء يشكلان موضوعين محوريين في نوادر أبي العيناء. وهذا في رأينا يعود بالدرجة الأولى إلى عماه. إذ لم يمتهن بعمل يكسب منه رزقه بعدما أصيب بالعمى فوقَع في فقر شديد. ولم يبقَ في يده إلا مفتاح وحيد يفتح به أبواب الرزق ألا وهو مهاراته الأدبية ولا سيما مدائحه. ولا شك أنَّه بعدما انتقل إلى عاصمة الخلافة وُفّق في توجيه مدائح لامعة لرجال الدولة والحصول منهم على جوائز وصِلَات قيّمة وذلك بفضل سرعة بديهته وذكائه الشديد وبراعته الأدبية. وبذلك لاقى قبولا وحماية وكرامة لدى الخلفاء والوزراء والكتاب والقضاة باستثناء الفترة التي أبعده فيها الوزير ابن الزيات عن بيئة القصر.

في الرواية الآتية يعبّر أبو العيناء عن وجهة نظره في المدح والذم:

> دخلت على المتوكل، ودعوت له، وكلمته. فاستحسن خطابي، وقال لي: بلغني أن فيك شراً! فقلت: يا أمير المؤمنين، إنْ يكن الشر ذِكْر المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، فقد زكَّى الله -جلّ وعز-، وذمّ. فقال في التزكية: {نِعْمَ العَبْدُ إِنَّه أَوَّابٌ} وقال في الذم: {هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيم} فذمَّه، تعالى اسمُه. وقد قال الشاعر: (ابن خلقان، ١٩٩٤، ١\٣٥٤)
>
> إذا أنا بالمعروف لم أُثنِ دائباً *** ولم أشتُم الجِبس اللئيم المذمَّما
>
> ففيم عرَفتُ الخير والشرّ باسمه *** وشقَّ لي الله المسامع والفما

ولكن هل الأمر فعلا كما زعم أبو العيناء؟ هل مديحه عبارة حقًّا عن ذِكر المحسن بإحسانه وذمُّه لذِكر المسيء بإساءته فقط؟

أولا إذا نظرنا إلى الرواية السابقة نرى أن أبا العيناء يدافع عن نفسه أمام الخليفة لأن خصومه قد اشتكوا إليه من سلاطة لسانه. وثانيا: من الواضح جدًّا لمن يدقّق الروايات الواردة بهذا الصدد أنه مدَح في معظم الأوقات لجَلبِ منافع مادية، وذَمَّ وهَجا لدوافع عديدة منها السخرية، والثأر، وإحراج العدو والمنافس. وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أنه أعرض عن الأشخاص حينما انتهى نفوذهم السياسي مثل ابن ابي دؤاد الذي كان يمدحه ويصاحبه ويأخذ منه العطايا. والأعجب من

ذلك أن أبا العيناء لم يمتنع عن ذم ابن أبي دؤاد عندما تولّى المتوكل على الله الخلافة وقضى على المعتزلة -وعلى رأسهم ابن أبي دؤاد- ولربما فعل ذلك لإظهار التبري من صديقه وحاميه القديم وليجد لنفسه مجالا فسيحا في بلاط الخليفة الجديد. هذا على سبيل المثال ما قاله لابن أبي دؤاد لما فلج: ما جئتك مسلّيا ولا معزّيا، ولكن جئت لأحمد الله فيك إذ حبَسك في جلدك، وأبقى لك عَينا تنظر بها إلى زوال النعمة عنك. (ابن حمدون، ١٩٩٦، ٥\٢١٦) الخلاصة أن الدافع الأساسي لمدائح أبي العيناء وهجاءه كان المصلحة الشخصية بالدرجة الأولى.

يبدو أنّ أبا العيناء قد نجح حتى في أول لقاء له مع العديد من رجال الدولة ولفت انتباههم عبر كلامه المستحسن وعباراته اللطيفة ومدائحه الجذَّابة كما نرى ذلك في الرواية الآتية:

> دخل أبو العيناء على الحسن بن سهل فشكا ضِيقته. فأمر له بخمسة آلاف درهم فقال: أصلح الله الوزير لا أَستقلّ قليلك ولا أَستكثِر كثيرك، قال له: ولم؟ قال: لا أَستكثر كثيرَك لأنك أكثر منه، ولا أستقلّ قليلك لأنه أكثر من كثير غيرك. فأُعجِب بكلامه وقال: اكتبوه وزِيدُوا خمسة آلاف أخر. (ابن المعتز، د.ت، ٤١٤)

مع أنّه مدح رجال الدولة لأغراضٍ سلَف ذكرُها، إلا أنه لم يَحرِم مَن استحق المدح الثناء من الشعراء والأدباء والندماء، فعلى سبيل المثال مدَح عبد الله بن المقفّع بالعبارات التالية: (التوحيدي، ١٩٨٨، ٨\٤٥)

كلام ابن المقفّع صريح، ولسانه فصيح، وطبعه صحيح

كأنّ كلامه لؤلؤ منثور، أو وَشْي منشور، أو روض ممطور.

ومدح محمدَ بن خالد أحدَ ندماء المتوكل قائلا: لئن كان آدم أساء إلى نفسه في إخراجها من الجنة، لقد أحسن إلينا أنه ولَدَ مثلك. (التوحيدي، ١٩٨٨، ٥\١٣٤) وفي الآتي مديحُه لعمر بن بحر الجاحظ:

> وقيل لأبي العيناء: ليت شعري؛ أي شيء كان الجاحظ يُحسن؟ فقال: ليت شعري أي شيء كان الجاحظ لا يحسن؟ وفيه يقول الشاعر: (الأنصاري، ١٩٨٧، ٧٦)

ولقد رأيت العلم يوما ما حواه اللافظ

حتى أقام طريقه عمرو بن بحر الجاحظ

إنَّ جزءا مهما من مدْحه وذمّه يتعلق مباشرة بعماه، وعندما يتم قراءة الأمثلة بهذا الصدد يتبين أنه استغل هذا العيب الجسدي في مدح الناس أو ذمهم على حد سواء، وتمكن من تحويل هذا العيب بمهارة إلى مِيزة. ولقد استخدم عماه كوسيلة فَعّالة لثناء من يخاطبه فمثلا عندما سأله المتوكل: ما أشدُّ شيءٍ مرّ عليك في ذهاب بصرك؟ قال: فَواتُ رؤيتك يا أمير المؤمنين، مع إجماع الناس على جَمالك. (الشابشتي، ١٩٨٦، ٨١) أما مَن استهزأ بعماه فقد شنّ عليه هجوما شرسا وجرَحه بلسانه الحاد، ويمكن أن نرى ذلك في الروايتين الآتيتين:

> قال رجل لأبي العيناء إن الله لم يأخذ من عبدٍ كَريمتَيه إلا عوَّضه الله خيراً منهما فما الذي عوّضك؟ قال: أن لا أرى ثقيلاً مثلك! (الوطواط، ٢٠٠٨، ٥٧٧)

وقالت له قَيْنَة: هَبْ لي خاتِمَك أذكرْك به. فقال: اذكريني بالمنع. وقالت له قينة: أنت أيضا يا أعمى! فقال لها: ما أستعين على وجهك بشيءٍ أَصلَحُ من العمى. (الآبي، ٢٠٠٤، ٣\١٣٣)

كل من جلس مع أبي العيناء -صديقا كان أم عدوا- تجنّب لسانه الصارم وخاف من التعرض لهجاءه المفجع وانتقاداته اللاذعة. ويبدو أن الخليفة نفسَه كان من بين هؤلاء. حيث قال أبو العيناء: لما أُدخلتُ على المتوكل عابَثَني جُلساؤه، فلما برزتُ عليهم قال المتوكل: ادفعوا إليه عشرة آلاف درهم اتقاءً للسانه، فقلتُ: قتلتَني واللهِ يا أميرَ المؤمنين، قال لي: وَيْحَك، وكيف ذلك؟ قلت: لأن من خِفتَه لا يعيش، فقال: ليس خَوْف فرق، ولكن خوف صِيانة. (التوحيدي، ١٩٨٨، ١\٧٨)

وهو بلسانه الحاد الطويل أزعج الكثيرين ولاسيما منافسيه في بلاط الخليفة مما جعلهم يجادلونه ويذمونه وكان المتوكل على علمٍ بذلك الأمر فقال له يوما: ما بقِي في المجلس أحد إلا ذمَّك غيري. فقال: (الزمخشري، ١٩٩١، ٢\٣١٦)

إذا رضِيتْ عنّي كِرام عشيرتي فلا زال غضبانا عليَّ لِئامها

إحدى السمات الرئيسة لِذمِّه وهِجائه هي أنه لم يمتنع عن توجيه سهامه لمن عارضه مهما كانت رُتبته. ولا يُستثنى من ذلك كبار الشخصيات، كما نراه في الرواية الآتية:

قال المتوكل يوما لأبي العيناء: بلغني أنك مَأبُون، فقال له: يا أمير المؤمنين، مَولَى القوم منهم. -وكان أبو العيناء من موالي بني العباس.- (ابن المعتز، د.ت، ١\٤١٤-٤١٥)

وكان أبو العيناء يستخدم أحيانا في هجائه أسلوبا أدبيا مبالَغا فيه حيث وجّه سهام الهجاء إلى أهدافها بعبارات مسجعة بليغة، فمثلا عندما تكلّم صديقه ابن ثُوابَة يوما فتكلّف ثم لحن؛ قال له أبو العيناء: تَقعَّرْتَ حتى خِفتُك، ثم تَكشَّفتَ حتى عِفْتُك. (الآبي، ٢٠٠٤، ٣\١٤٤) وذمَّ رجلا آخر فقال: له ضِحْكٌ كالبُكاء، وتودُّد كالسباب والافتراء، ونوادر كنَدْبِ الموتى. (التوحيدي، ١٩٨٨، ٦\١٤)

ومن المواضيع الأساسية لهجائه ذَمُّ القُبْح والقَبِيح فلم يدَعْ أبو العيناء شيئا كريها أو شخصا قبيحا إلا وَذَمَّه. فقال مثلا عن رجل قبيحِ الوجه: كأنّما خُلق هذا الرجل ليعلمَ الناسُ نعمة الله عليهم. (الآبي، ٢٠٠٤، ٣\١٣٨) وعندما قال له صديقه السُّدْرِيّ: أشتهي أَن أرى الشّيطان فقال: أُنظرْ في المرآة. (الآبي، ٢٠٠٤، ٣\١٣٨)

كان أبو العيناء يتمتع بقدرة بالغة في التشبيه والتصوير وفي كثير من نوادره نراه يستغل قدرته هذه لمدح الناس أو ذمهم. ومن اللافت للنظر أنه كان يصوّر الأحداث التي يَشهَدها بصورة عجيبة مضحكة، فعلى سبيل المثال، لما لقِيَ شخصا -يُكنَّى أبا الحمار- على حمار صغير قال له مستهزئا: لقد ساءَني حين اضْطَرّك الدهرُ إلى ركوب أَصْغرِ أولادك. (الآبي، ٢٠٠٤، ٣\١٣٥) وذاتَ يومٍ دعاه أحد أصدقائه إلى منزله ليُطعِمه فجعل يُكثِرُ الكَذِب حول المائدة، فالتفت أبو العيناء إلى من كان بجواره فقال: نحن كما قال الله تعالى: {سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْت} (الآبي، ٢٠٠٤، ٣\١٣٨) وفي يوم من الأيام غنَّى أبو الجَمَّاز فقال لأبي العيناء: كيف ترى غِنائي؟ فردَّ: كما قال الله عزّ وجلّ: {إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ} (الإصفهاني، ١٩٩٩، ١\٨٢١) وحمله بَعضهم على دابةٍ، فاشتراها ابن الرجل منه بثمنٍ أخَّره، ولقِيه بعد أيام، فقال: كيف أنت يا أبا العيناء؟ قال: بخيرٍ يا من أبوه يَحمِل وهو يُرحِل. (الآبي، ٢٠٠٤، ٣\١٣٣)

إنّ قسما لا يستهان به من أخبار أبي العيناء عن عرض حاجاته، فهو -كما ذكرنا- كان يعيش على العطايا، وكان يعرض حاجاته بطرق متعددة، ولكنه غالبا ما كان يفعل ذلك بأسلوب أدبي يمدح فيه صاحب الإكرام ويطلب منه ما يحتاجه. وكان أحيانا يقدّم طلباته وحاجاته برسائل يزيّنها بآيات قرآنية أو أبيات شعرية. (الإصفهاني، ١٩٩٩، ١\٦٤٢) ومن الناحية الأخرى كان يكرَه الأشخاص الذين رفضوا طلباته ولم يُلبّوا حاجاته، بل كان يعادي بعضا من هؤلاء ويذمّهم. ويمكن أن نرى ذلك في الروايات الآتية:

١- كان يجري على أبي العيناء رِزْق فتأخّر عنه فتقاضاه مرارًا ثم ترَكه، وقال: لا حاجة لي فيه فهو رِقّ لا رِزْق، وبلاء لا عَطاء ومِحْنة لا مِنْحَة. (الإصفهاني، ١٩٩٩، ١\٦٣٢)

٢- قال أبو العيناء: كان عيسى بن فرخانشاه يتيه عليَّ في ولايته الوزارة، فلما صُرف رهبني، فلقيني فسلّم عليَّ فأحفى. فقلت لغلامي: من هذا؟ قال: أبو موسى؛ فدنوتُ منه وقلت: أعزّك الله، والله لقد كنت أقنع بإيمائك دون بيانك، وبلحظك دون لفظك، فالحمد لله على ما آلت إليه حالك، فلئن كانت أخطأت فيك النّعمة، فلقد أصابت فيك النّقمة، ولئن كانت الدنيا أبدتْ مقابحها بالإقبال عليك، لقد أظهرت محاسنها بالانصراف عنك، ولله المنّة إذ أغنانا عن الكذب عليك، ونزّهنا عن قول الزّور فيك، فقدْ والله أسأتَ حمل النّعم، وما شكرتَ حق المنعم. ولما قيل له: يا أبا عبد الله لقد بالغت في السبّ، فما كان الذنب؟ قال: سألته حاجة أقل من قيمته، فردّ عنها بأقبح من خِلقته. (الوطواط، ٢٠٠٨، ٧٣)

٣- وعرضت له حاجةٌ إلى بُغَا (قائد تركي)، فلَقِيه، فقال: القَ الفَتْح بن خاقان فلقِيه فوعَده، ثمَّ لقِيه فوعده؛ فلمَّا كان فِي المرة الثّالثة أَلْقَاهُ على سَبِيل ضجرٍ فَقَال: أمَا علمتَ أنّ من طالبَ السُّلطان احتاجَ إلى ثلاث خِلَال؟ فقال: وما هنّ؟ -أعز الله الْأَمِير-. قَالَ: عقل وصبر ومالٌ. فقال أبو العيناء: ولوْ كان لي عقلٌ لعقَلتُ عن الله أمرَه ونَهْيه، ولو كان لي صبرٌ لَصبرتُ منتظِرًا لرزقي أَنْ يأتيني، ولو كان لي مالٌ لاستغنيتُ به عن تأميل الأَمِير، وَالْوقوف بِبابِه. (الآبي، ٢٠٠٤، ٣\١٤١)

إن ثمة ظاهرة بارزة في الشخصية الأدبية والفكاهية لأبي العيناء ألا وهي "المُجُون". ولا شك أنه ظاهرة شائعة في الأدب العربي لا سيما في العصرين الأموي والعباسي فضلا عن العصر الجاهلي. وإن كتب الأدب القديمة زاخرة بكمية كبيرة من الأشعار والنوادر والأخبار التي فيها جميع ألوان المجون. وهذا الطابع المُلفِت في الأدب العربي، هو أيضًا لوْن بارز في الروايات الفكاهية المنسوبة إلى أبي العيناء فهو يُعتبر من أبرز أصحاب النوادر الذين استخدموا في والذم والهجاء "عبارات الهزل المعجب والمجون المطرب". (ابن أبي الإصبع، د.ت، ١٣٨) وفعلا من يقرأ نوادره فإنه يرى أن كثيرا منها يحتوي على عبارات وألفاظ ماجنة وتشبيهات مبتذلة. أما في مداعباته مع أصدقائه المقرَّبين مثل ابن مكرم وابن ثوابة فهو لا يقف عند حد. فكان هؤلاء الأصدقاء يمازحون فيما بينهم إلى درجة أن مزاحهم يصل أحيانا إلى التحقير والإهانة وتبادل الشتائم. ويمكن أن نرى ذلك في الحوارات بينه وبين ابن مكرم، منها:

١- قال أبو العيناء في كلامٍ له: كان أبي يُحبّني، فقال ابن مكرّم: كان أبوك يحِبّ الخَرَا قال: فلوْ رآك إذاً لَلطعَك (التوحيدي، ١٩٨٨، ٧\١٦١)

٢- وقال ابن مكرم يومًا: مَا فِي الدنيا أَعقلُ من القَحْبة؛ لأَنَّهَا تُطعَم أطايب الطَّعَام، وتُسقَى ألذَّ الشَّراب وَتَأْخُذ دَرَاهِم وتتلذَّذ. فَقَالَ لَهُ أَبُو العيناء: فَكيف عَقْل والدتِك؟ قَالَ: أَحمَق من دغَة. (الآبي، ٢٠٠٤، ٣\١٤١)

وكانت علاقته بابن ثوابة مثل علاقته بابن مكرم. قَالَ له ابْن ثوابة يَوْمًا: أَنا وَالله أحبُّك بكليتي. قَالَ أَبُو العيناء: إِلَّا عُضوٌ واحد مِنْك أيَّدك الله! (الآبي، ٢٠٠٤، ١٤٤\٣) وكان أبو العيناء يُومئ بين الحين والآخر إلى ضعف جنسي لابن ثوابة ويمزح معه حيث قال له يَوْمًا: إِذا شهِدت على النَّاس ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بِمَا كَانُوا يعْملُونَ شهد عَلَيْك أَنتنُ عُضْوٍ فِيك. (الآبي، ٢٠٠٤، ١\٣)

الاقتباس من القرآن

إنّ من الخصائص التي تميّز أبا العيناء في الأدب العربي هو فنّ الاقتباس من القرآن الكريم. فهو أبدع في هذا الفن إبداعا عظيما. حيث امتزجت قدراته اللغوية الفائقة بسرعة بديهته وحفْظه القويّ للقرآن الكريم وبذلك أصبح أبو العيناء رائدا في هذا الفن، وقد خلّف وراءه كثيرا من النوادر المضحكة والأجوبة المسكتة التي تناقلتها كتب الأدب. ونوادره التي استخدمت فيها آيات قرآنية لأغراض مزاحية يغلب عليها موضوعات "الذمّ والهجاء والاستهزاء." إن أديبنا رسَمَ الأحداث التي شهدها أو سمعها بصورة كاريكاتورية من خلال اقتباسات من الآيات الكريمة، وكذلك قام في حواراته اليومية بتضمين العديد من الآيات في كلامه بسهولة ومهارة عبّر بها عن آرائه وعواطفه، ولكنه غالبا ما استمدَّ القوة من الكلام الإلهي لإسكات معارضيه أو الدفاع عن نفسه أو السخرية من الآخرين، ويحسُن هنا إيراد بعض الأمثلة من هذا القبيل:

١- قيل لَهُ: إنّ ابْن نوحٍ النَّصْرَانِي عاتبٌ عليك؛ فقال: {وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ}. (البقرة: ١٢٠)" (الآبي، ٢٠٠٤، ١٣٥\٣)

٢- وقال له يوما المتوكل: إن سعيد بن عبد الملك يَضحَك مِنك، فقال: "إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ. (المطففين: ٢٩) (الآبي، ٢٠٠٤، ١٣٥\٣)

٣- وقيل له: ما تقول في محمَّد بن مكرم والعَبَّاس بن رُسْتَم؟ قَالَ: "هُمَا الْخمْر وَالمَيْسِر وإِثْمُهما أكبر من نفْعِهما. (البقرة: ٢١٩)" (الآبي، ٢٠٠٤، ١٣٤\٣)

٤- وسُئل أبو العيناء عن مالك بن طوق، فقال: "لو كان في زمن بني إسرائيل ونزَل ذَبْح البقرة ما ذُبِح غيره!" قيل: فأخوه عمر؟ قال: {كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا}. (النور: ٣٩) " (الحصري، د.ت، ٣٢٦\١)

٥- قال أبو العيناء لصاعد: أنتَ خيرٌ من رسول الله؛ فقال: وَيْلَك، كيف؟ قال: إنّ الله تعالى قال له: {وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِك} (آل عمران: ١٥٩)؛ وأنت فظٌّ ولسنا نَنفَضّ! (الآبي، ٢٠٠٤، ١٣٣\٣)

٦- دخل أبو العيناء على إسماعيل القاضي، وأخذ يَردّ عليه إذا غلَط في اسم رجل وكنية آخر، فقال له بعضُ من حضر: أَتردُّ على القاضي -أعزَّه الله-؟ قال: نعم، لِمَ لا أَردُّ على القاضي وقد رَدَّ الهُدْهُد على سليمان، وقال: {أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ} (النمل: ٢٢). وأنا أَعلمُ من الهدهد، وسليمان أَعلَمُ من القاضي. (التوحيدي، ١٩٨٨، ١٣٤\٥)

٧- دخل أبو العيناء بلدة والصبيان يلعبون ويترامَون بالحجارة، فوقع حجر على رأسه فانكسر، وكان لم يجد صديقا فلم يأكل تلك الليلة طعاما، ثم بعد الصبح ذهب إلى أمير البلدة، فقال له الأمير: في أيّ يوم دخلت؟ قال: {فِي يَوْمٍ

نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ} (القمر: ١٩). قال: في أيّ ساعة؟ قال: {فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ} (التوبة: ١١٧). قال: وأين نزلت؟ قال: {بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ} (إبراهيم: ٣٧). فضحِكَ ووصَلَه. (ابن الخطيب، ٢٠٠٢، ٣٢٦)

٨- ولما وكّل موسى بن عبد الملك الأصبهاني بنجاح بن سلمة ليستأديه ما عليه من الأموال عاقبَه موسى فهلكَ ابن سلمة في المطالبة والعقاب، فلقي بعضُ الرؤساء أبا العيناء وقال له: ما عندك من خبرِ نجاح بن سلمة فقال أبو العيناء: {فَوَكَزَهُ مُوسى فَقَضى عَلَيْهِ} (القصص: ١٥) فبلغت كلمتُه موسى فلقيه وقال له: أَ بِي تولع؟ والله لأُقوّمنَّك فقال له أبو العيناء: {أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ} (القصص: ١٩). (الحموي، ١٩٩٣، ٦\٢٦٠٨)

النتائج

بعد البحث عن حياة أبي العيناء وشخصيته الأدبية في إطار ظاهِرتَي المدح والهجاء توصلنا إلى النتائج الآتية:

١- إنَ أبا العيناء من أهمّ ظرفاء العهد العباس الذين يحتلّون مكانة خاصة في تاريخ الفكاهة العربية، فهو بفضل امتزاج ذكائه الحاد بمكتسباته العلمية والأدبية التي تلقّتها على أيدي أعلام عصره أصبح أديبا مميزا وظريفا مرموقا.

٢- بدأ نجمه يسطع بعدما انتقل من البصرة إلى بغداد بعهد الخليفة المأمون في أواخر الثلاثينيات من عمره نتيجةَ الإمكانات والفرص الجذّابة التي أُتيحت لأهل الفن والعلم والأدب.

٣- هو بفضل شخصيته الأدبية القوية ومدائحه اللّامعة تمكَّن في العاصمة العباسية من إقامة علاقات وثيقة مع أبرز رجال السياسة والدين فجذَب انتباه الخليفة المأمون، فرحّب به في مجالسه وخصّص له مَبلغا شهريا من المال.

٤- أبو العيناء مرَّ بفترة من فقْر مُدقِع في عهدَي المعتصم والواثق طوالَ اثنتي عشرة سنة كان فيها الوزير القوي ابن الزيات يَحرِم المقرَّبين للقاضي ابن أبي دؤاد من إمكانات الدولة وهو كان منهم. ولا شك أنّ هذا التقلب الجذري أثّر في حياته وأدبه وزاد من سلاطة لسانه.

٥- ومع جلوس المتوكل على عرش الخلافة وإعادة تصميم السياسة جاءت الأيام التي حلم بها أبو العيناء، وفي الواقع سرعان ما اكتسب مكانة خاصة بين ندماء المتوكل من خلال إظهار مهاراته الأدبية والمزاحية المتفوّقة.

٦- إن أبا العيناء لم يبقَ فقط نديما مخلِصا يمتدح الخليفة ويُسلّيه بحكاياته اللطيفة ونوادره المضحكة، بل واستخدمه المتوكل -نظرًا لدقة آراءه ووجهات نظره- كمستشار وحتى في بعض الأحيان كواشٍ خاص له، حيث كان يتخذ منه معلومات ويطلب آراءه وتقييماته عن رجال السياسة.

٧- بعدما تم البحث عن الشخصية الأدبية لأبي العيناء، تبيّن لنا أنه "فُكاهيّ مُبدع" و "أديب بارع" و "شاعر متشائم" و "راوية أخبارٍ مهِمّ." ولا شك أن أهمَّ ما يميّزه هو ظرفه ومزاحه. فهو لم يؤثر على الفترة التي عاش فيها فقط، وإنما أصبح واحدا من أبرز الشخصيات الهامة في تاريخ المزاح العربي تاركًا وراءه مجموعة غنية من النوادر والنُّكَت التي يمكن أن تنافس الإنتاجات الفكاهية في الفترات التالية من حيث الكمية والكيفية.

٨- لا شك أن أبا العيناء أديب بارع في المدح والهجاء. فمن يطّلع على نوادره يلاحظ أن معظمها تندرج تحت هذين الموضوعين. وقد نال بمدائحه مراتب عالية لدى رجال الدولة كما حصل منهم على جوائز وعطايا ثمينة. بينما كان الجميع صديقا كان أو عدوا يخافون من لسانه الحاد وكلماته الجارحة. لأنه كان جريئا حاضر الجواب، يُفحم من حوله بأجوبته المسكتة.

٩- بعد قراءة نوادره يمكن القول بأنه غالبا ما امتدح أصحاب المناصب لجلب منافع مادية، ومع ذلك لم يتوقف عن ثناء من يستحق المدح من الشعراء والأدباء والكتاب.

١٠- كان يهجو لعدة أسباب منها السخرية، والاستهزاء، وإحراج الأعداء ،والمنافسين. وبما أنه يُجيد الفنون البلاغية ويُتقِن اللعب بالكلمات فكانت مدائحه وأهجيته غالبا ما جرتْ في إطار فنون التعبير. كما أنه كثيرا ما لجأ في ذمّه إلى السب والشتم والتشبيهات البذيئة.

١١- ومما يميّزه أنه كان أديبا رائدا في فن الاقتباس من القرآن الكريم لأغراض فكاهية، إذ خلّف وراءه نوادر عديدة من هذا القبيل وكان يغلب عليها أيضا الذم والهجاء.

المصادر

الأبشيهي، شهاب الدين (١٩٩٨). *المستطرف في كل فن مستطرف*.، بيروت: عالم الكتب.

الآبي، أبو سعد منصور بن الحسين (٢٠٠٤). *نثر الدر في المحاضرات*. تحقيق: خالد عبد الغني محفوظ. بيروت: دار الكتب العلمية.

الأنصاري الحصري، أبو إسحاق إبراهيم بن علي (١٩٨٧). *جمع الجواهر في الملح والنوادر*. تحقيق: علي محمد البجاوي. بيروت: دار الجيل.

ابن أبي الإصبع، عبد العظيم بن الواحد بن ظافر (د.ت). *تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر*. تحقيق: محمد شرف حفني. الجمهورية العربية المتحدة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

ابن أبي عون، إبراهيم بن محمد بن أحمد (١٩٩٦). *الأجوبة المسكتة*. تحقيق: مي يوسف. القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.

ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج (١٩٩٢). *المنتظم في تاريخ الأمم والملوك*، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا. بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن حمدون، أبو المعالي محمد بن الحسن (١٩٩٦). *التذكرة الحمدونية*. بيروت: دار صادر.

ابن الخطيب، قاسم الأماسي (٢٠٠٢). *روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار*. حلب: دار القلم العربي.

ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين (١٩٩٤). *وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان*. تحقيق: إحسان عباس. بيروت: دار صادر.

ابن عبد ربه، أبو عمر شهاب الدين (١٩٨٣). *العقد الفريد*. بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن المعتز، عبد الله بن محمد (د.ت.). *طبقات الشعراء*. تحقيق: عبد الستار أحمد فراج. القاهرة: دار المعارف.

ابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد (١٩٩٧). *الفهرست*. تحقيق: إبراهيم رمضان. بيروت: دار المعرفة.

الإصفهاني، الراغب (١٩٩٩). *محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء*. بيروت: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم.

البغدادي، الخطيب (٢٠٠٢). *تاريخ بغداد*. تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

أبو سويلم، أنور (١٩٩٠). *أبو العيناء*. عمان: دار عمّار.

التوحيدي، أبو حيان (١٩٨٨). *البصائر والذخائر*. تحقيق: وداد القاضي. بيروت: دار صادر.

التوحيدي، أبو حيان (١٩٩٢). *أخلاق الوزيرين*. تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي. بيروت: دار صادر.

الحُصري، أبو إسحاق إبراهيم بن علي (د.ت.). *زهر الآداب وثمر الألباب*. بيروت: دار الجيل.

الحموي، ياقوت (١٩٩٣). *معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب*. تحقيق: إحسان عباس. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

الرقيق القيرواني، أبو اسحاق إبراهيم بن القاسم (د.ت.). *قطب السرور في أوصاف الأنبذة والخمور*. تحقيق: أحمد الجندي. دمشق: منشورات مجمع اللغة العربية.

الزمخشري، جار الله (١٩٩١). *ربيع الأبرار ونصوص الأخيار*. بيروت: مؤسسة الأعلمي.

الشابشتي، أبو الحسن علي بن محمد (١٩٨٦). *الديارات*. تحقيق: قرقيس عوّاد. بيروت: دار الرائد العربي.

الصالح، صبحي إبراهيم. (١٩٤٧). "أبو العيناء: من ظرفاء العصر العباسي". القاهرة: مجلة الرسالة. العدد ٧١١. الصفحة ١٣-٢١.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (٢٠٠٠). *الوافي بالوفيات*. تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى. بيروت: دار إحياء التراث.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (٢٠٠٧). *نكث الهميان في نكت العميان*. تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا. بيروت: دار الكتب العلمية.

الطبري، ابن جرير أبو جعفر محمد (١٩٦٧). *تاريخ الطبري*. بيروت: دار التراث.

القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم (١٩٢٦). *الأمالي = شذور الأمالي = النوادر*. تحقيق: محمد عبد الجواد الأصمعي القاهرة: دار الكتب المصرية.

القلقشندي، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن علي (د.ت.). *صبح الأعشى في صناعة الإنشاء*. بيروت: دار الكتب العلمية.

القوال، أنطوان (١٩٩٤). *ديوان أبي العيناء ونوادره*. بيروت: دار صادر.

النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (٢٠٠٢). *نهاية الأرب في فنون الأدب*. القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية.

الوطواط، أبو إسحق برهان الدين محمد بن إبراهيم (٢٠٠٨). *غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة*. تحقيق: إبراهيم شمس الدين. بيروت: دار الكتب العلمية.

Kırkpınar, M., (2006). Türkiye Diyanet Vakfı İslâm Ansiklopedisi (DİA). *el-Mütevekkil Alellah Ca'fer b. Muhammed*, (مجلد 32, صفحة 212-214.) İstanbul.

Çakır, M. F. (2018). *Abbâsî Sarayının Hazırcevap Nedîmi: Ebü'l-'Aynâ: Hayatı-Mizahçılığı-Nükteleri*. (رسالة الماجستر غير مطبوعة) Uludağ Üniversitesi Sosyal Bilimler Enstitüsü, Bursa.

Kaynakça

Âbî, Ebû Sa'd Mansûr b. el-Hüseyin (2004). *Nesrü'd-dürr fi'l-muhâdarât*. Thk. Hâlid Abdülgani Mahfûz. Beyrut: Dâru'l-Kütübi'l-'İlmiyye.

Bağdâdî, el-Hatîb (2002). *Târîhü Bağdâd*. Thk. Beşşâr 'Avvâd. b.y. Dâru'l-Garbi'-İslâmî.

Çakır, M. F. (2018). *Abbâsî Sarayının Hazırcevap Nedîmi: Ebü'l-'Aynâ: Hayatı-Mizahçılığı-Nükteleri*. (Yayımlanmamış yüksek lisans tezi) Uludağ Üniversitesi Sosyal Bilimler Enstitüsü, Bursa.

Ebû Süveylim, Enver (1990). Ebü'l-'Aynâ. Ammân: Dâru 'Ammâr.

Ensârî el-Husrî, Ebû İshâk İbrâhim b. Ali (1987). *Cem'ül-cevâhir fi'l-mülah ve'n-nevâdir*. Thk. Ali Muhammed el-Becâvî. Beyrut: Dâru'l-Cîl.

Hamevî, Yâkût (1993). *Mu'cemü'l-üdebâ*. Thk. İhsan Abbâs. Beyrut: Dâru'l-Garbi'l-İslâmî.

Husrî, Ebû İshak İbrâhim b. Ali (ts.). *Zehrü'l-âdâb ve semerü'l-elbâb*. Beyrut: Dâru'l-Cîl.

İbhîşî, Şihâbüddîn (1998). *el-Müstetraf fi külli fennin müstetraf*. Beyrut: 'Âlemü'l-Kütüb.

İbn 'Abdürabbih, Ebû Ömer Şihâbüddîn. (ts.). *el'İkdü'l-ferîd*. Beyrut: Dâru'l-Kütübi'l-'İlmiyye.

İbn Ebû 'Avn, İbrâhim b. Muhammed b. Ahmed (1996). *el-Ecvibetü'l-müskite*. Thk. Mey Ahmed Yûsuf. Kahire: 'Ayn li'd-Dirâsât ve'l-Buhûsi'l-İnsâniyye ve'l-İctimâ'iyye.

İbn Ebü'l-İsba', Abdülazîm b. el-Vâhid b. Zâfir (ts). *Tahrîrü't-tahbîr fi sınâ'ati'ş-şi'r ve'n-nesr*. Thk. Muhammed Şeref Hafnî. el-Cumhûriyyetü'l-'Arabiyyetü'l-Müttehide: el-Meclisü'l-A'lâ li'ş-Şuûni'l-İslâmiyye.

İbn Hallikân, Ebü'l-Abbâs Şemsüddîn (1994). *Vefeyâtü'l-a'yân ve enbâü ebnâi'z-zamân*. Thk. İhsan Abbâs. Beyrut: Dâru Sâdır.

İbn Hamdûn, Ebü'l-Me'âlî Muhammed b. el-Hasen (1996). *et-Tezkiretü'l-Hamdûniyye*. Beyrut: Dâru Sâdır.

İbnü'l-Cevzî, Cemâlüddîn Ebü'l-Ferec (1992). *el-Muntazam fi târîhi'l-ümem ve'l-mülûk*. Thk. Muhammed Abdülkadir 'Atâ - Mustafa Abdülkâdir 'Atâ. Beyrut: Dâru'l-Kütübi'l-'İlmiyye

İbnü'l-Hatîb, Kâsım el-Emâsî, (2002). *Ravdü'l-'ahyâr el-müntehab min rebî'i'l-ebrâr*. Halep: Dâru'l-Kalemi'l-'Arabî.

İbnü'l-Mu'tez, Abdullah b. Muhammed (ts.). *Tabakâtüş-şu'arâ*. Thk. Abdüssettâr Ahmed Ferrâc. Kahire: Dâru'l-Me'ârif.

İbnü'n-Nedim (1997). *el-Fihrist*. Thk. İbrahim Ramazan. Beyrut: Dâru'l-Ma'rife.

İsfehânî, Râgıb (1999). *Muhâdarâtü'l-üdebâ ve mühâverâtü'ş-şu'arâ ve'l-bülegâ*. Beyrut: Şeriketü Dâri'l-Erkam b. Ebî'l-Erkam.

Kâlî, Ebû Ali İsmâil b. el-Kâsım (1926). *el-Emâlî = Şüzûru'l-emâlî = en-Nevâdir* Thk. Muhammed Abdülcevâd el-Asma'î. Dâru'l-Kütübi'l-Mısriyye

Kalkaşendî, Ebü'l-Abbâs Şihâbüddîn Ahmed b. Ali (ts). *Subhu'l-a'şâ fi sınâ'ati'l-inşâ*. Beyrut: Dâru'l-Kütübi'l-'İlmiyye.

Kavvâl, Antuvan (1994). *Dîvânu Ebi'l-'Aynâ ve nevâdiruh*. Beyrut: Dâru Sâdır

Kırkpınar, M., (2006). Türkiye Diyanet Vakfı İslâm Ansiklopedisi (DİA). *el-Mütevekkil Alellah Ca'fer b. Muhammed*, (Cilt 32, ss. 212-214) İstanbul.

Nüveyrî, Şihâbüddîn Ahmed b. Abdülvehhâb (2002). *Nihâyetü'l-ereb fi fünûni'l-edeb*. Kahire: Dâru'l-Kütüb ve'l-Vesâiki'l-Kavmiyye.

Rakîk el-Kayrevânî, Ebû İshak İbrâhim b. el-Kâsım (ts.). *Kutbü's-sürûr fi evsâfi'l-enbize ve'l-humûr*. Thk. Ahmed el-Cündî. Dımaşk: Menşûratu Mecma'i'l-Lügati'l-'Arabiyye.

Safedî, Salâhüddîn Halil b. Aybek (2000). *el-Vâfi bi'l-vefeyât*. Thk. Ahmed el-Arnavût - Türkî Mustafa. Beyrut: Dâru İhyâi't-Türâs.

Safedî, Salâhüddîn Halil b. Aybek (2007). *Neksü'l-himyân fi nüketi'l-'umyân*. Thk. Mustafa Abdülkâdir 'Atâ. Beyrut: Dâru'l-Kütübi'l-'İlmiyye.

Salih, S. İ. "Ebü'l-'Aynâ min zurefâi'l-'asri'l-'Abbâsî". *Mecelletü'r-Risâle*. Sayı 711, Nisan 1948, 13-21.

Şâbuştî, Ebü'l-Hasen Ali b. Muhammed (1986). *ed-Diyârât*. Thk. Karkîs 'Avvâd. Beyrut: Dâru'r-Râidi'l-'Arabî.

Taberî, İbn Cerîr (1976). *Târîhü't-Taberî*. Beyrut: Dâru't-Türâs.

Tevhîdî, Ebû Hayyan (1992). *Ahlâku'l-vezîreyn*. Thk. Muhammed b. Tâvît et-Tancî. Beyrut: Dâru Sâdır.

Tevhîdî, Ebû Hayyân. (1988). *el-Besâir ve'z-zehâir*. Thk. Vedâd el-Kâdî. Beyrut: Dâru Sâdır.

Vatvât, Ebû İshâk Burhâneddin Muhammed b. İbrâhim (2008). *Gurarü'l-hâsâisi'l-vâzıha*. Thk. İbrâhim Şemsüddîn. Beyrut: Dâru'l-Kütübi'l-'İlmiyye.

Zemahşerî, Cârullah (1991). *Rebî'ül-ebrâr ve nusûsu'l-ahyâr*. Beyrut: Müessesetü'l-A'lemî.